لماذا يحتاج المرء إلى المعاذير وكيف يتعلمها

«مع من أجريت اتصالاً هاتفياً؟»

«لن أقول»

«أين كنت مساء الأمس؟»

«هذا لا يعنيك في شيء أبداً»

«هل يروق لك مذاق الجاتو الذي قدمته؟»

«كلاّ!»

من تراه يجيب عن أمثال هذه الأسئلة بهذا القدر من الوضوح، وعلى هذا النحو غير القابل لسوء الفهم؟ أتراه إنسان صادق، حقيقي. إن المرء لَيَنزِع، على الأغلب، إلى أن يقول: «إنه فتى، فظ غليظ! بل هو كتلة من الغلاظة الخالصة - لقد كان في وسع المرء أن يصوغ ذلك صياغة ألطف، بلا ريب!».

ومع ذلك فالمسؤول لم يزدِ على أن قال الحقيقة! فالمرء لا يريد أن يتحدث عن الاتصال الهاتفي، ولا عن الكيفية التي يودّ المرء أن يُسأل بها عن أمسية الأمس، ولماذا لا نُسلّم بأن «الجاتو» لم يكن جيداً؟

ما من شك في أن كل شيء كان يعبر عن الحقيقة، وبذلك يعبر عن خصلة تُقَدَّر على الدوام وتقدر تقديراً عالياً.

أهذا صحيح؟

أما أن يكذب المرء كذباً مباشراً - فلا، إذ لا يجمل به ذلك، فحبل الكذب قصير، ومن يكذبْ مرة لا يُصدَّقْ بعدها - وهذا ما نعرفه نحن جميعاً، منذ أيام المدرسة، ومع التسليم بأن هذا ليس من السهل دائماً، فلا بد للمرء أن يلاحظ الفروق الدقيقة ملاحظة دقيقة.

قال فرانك الصغير: «لقد أكلت كل شيء».

وأجابت أمه: «بل قلبت السلطة في وعاء القمامة، لقد رأيت هذا حقاً! فهلا خجلت! كيف يستطيع الولد أن يكذب على أمه بهذه الطريقة فحسب!».

وقال فرانك: «لقد قلتِ بالأمس، في الهاتف، لإيما إننا لا نستطيع أن نزورها لأن أبي يأتي إلى البيت متأخرا، ولكنك قلتِ لأبي قبل ذلك إننا سنتصرف يوم الأحد على راحتنا، وقلت لأمك أيضاً أنه لا بد لك من تأدية ساعاتٍ إضافية».

وبماذا أجابت الأم النموذجية فرانك الصغير؟

«كلا، يا عزيزي، هذا أمر ما زلت لا تفهمه، لقد كان هذا مجرد عذر!»

إنها فروق دقيقة لا بد للطفل أن يسلكها في إطارها الصحيح أوَّلاً، ولكن لا تَحْمِلَنَّ هماً، فذلك أمر يمكن تعلمه بسهولة بالغة، منذ السنوات الأولى! فالمرء يتحاشى الأسئلة غير المستحبة، ببساطة، ويحاول أن يسلك طرقاً جانبية.

«كلا، أنا لم آخذ الدبة المطاطية، فقد دسّها أحدهم في جيب بنطالي!».

«لا أعرف أين سقط المارك، ربما في البالوعة! فقد ضاع مني ببساطة».

«لم أضع ساقي في طريق قدم أوفه - بل زَلَّت هذه الساق فحسب».

كلا - كلا، فهذا مازال غير بالغ البراعة، ولأن الكاذب بهذا القدر من الغباء، عُدَّ من الأطفال الخبثاء، وبات يُنحى عليه باللائمة، بل ربما عوقب، وإذا فلا بدّ للمرء أن يبدأ بذكاء ومهارة أكبر، ليتجنب الملامات والعقوبات، ولكن كيف؟ بأن يلفّق تلفيقاً أفضل!

«عجباً، هذه الدببة المطاطية - أجل، أجل، لقد كان هناك رجل مضحك للغاية يجري ورائي في المتجر، وهو الذي دسّ الدببة المطاطية في جيبي، هدية منه إليّ - أجل، هذا صحيح، لقد كان هذا لطيفاً للغاية، هذا الرجل!» وبذلك طبّق فرانك الصغير التكتيك الصحيح صحة مطلقة، أي تكتيك الاعتذار الناجح. كلا يا صاحب الدماغ الصغير، فإن المرء يرى ما يكفي من الجرائم المكشوفة العارية التي تدور حول أمثال هؤلاء الرجال!

١- لم يكن هذا أنا، بل كان طفلاً آخر.

٢- كانت أفكار الأم موجهة نحو أثر خاطئ: - رجل غريب - لطيف - يهدي إلى ولدي دببة مطاطية - فإلى ماذا كان يقصد بهذا؟

والآن يعود التعليم في كل الأحوال: (لا ينبغي لك أن تقبل شيئاً من أناس غرباء! فلقد رأيت، منذ عهد غير بعيد، في التلفاز، مقدار خطر هذا!».

لو أننا أفصحنا جميعاً، وعلى الدوام، بصراحة عما نفكّر فيه في اللحظة الراهنة أو نذهب إليه، لكان الشيطان أفلت من عقاله، ولكانت النتائج هي الغضب، والحُمَيّا والتذمّر، والتعرّض للمهانة، وكذلك الإزعاج، والهمّ، وسوء الظن، من حولنا.

ومن عَساهُ يريد أن يخلق مثل هذا الشقاق، حيث نريد نحن جميعاً أن ننسجم مع الآخرين، بأكبر قدر ممكن من المودة، والمطاوعة، واللطف والدماثة، بين كلٍ منا والآخرين - باستثناء أهل الغلظة والفظاظة والمفرطين في السماجة والفظاظة، والمتعصبين للحقيقة بالطبع. ولذلك أعددنا مخزوناً من الأجوبة التي ما نفتأ نستعملها من دون أقل عائق، لكي نتجنّب المواقف الحرجة بأقلِّ قَدْرٍ ممكن من لَفْتِ النظر. على أنكم تعرفون أشهر الأمثلة على الإطلاق، إذ تقول الزوجة لزوجها: (إلى أين تُزْمِعِ الذهاب يا تُرى؟) فيجيبها الزوج قائلاً: (إلى حيث آتي بالسجائر). ويسقط مزلاج الباب في قفله، ويكون الزوج قد توارى مُنْفَلِتَ العنان. فما الذي كان عليه أن يقوله؟ أتراه كان عليه أن يقول: سأنطلق بالسيارة إلى ليلى الشقراء من دون إبطاء. هذا سلوك فظ. وفضلاً عن ذلك فإن المرء يحتاج إلى جرأة بهلوان على حبل عالٍ من دون شبكة، وسيكون ذلك بمثابة الإقرار بذنبه، وستترتب عليه نتائج لا يمكن تقديرها بصورة مسبقة - وكل ذلك مزعج أيَّما إزعاج.

ولذلك فمن الخير للإنسان أن يستعمل الجواب اللطيف الذي لا حرج فيه، والذي هو صحيح على نحو استثنائي، مثل عندما يسحب الإنسان، قبل ركوب السيارة، بسرعة، من الجهاز الآلي، علبة سجائر، وذلك عند المنعطف الحرج على نحو دقيق - فجوابه اللطيف يسمى بالعذر أو الذريعة.

على أن الصغير سرق سرقة واضحة لا لبس فيها، وكذب. وهذا سلوك إجرامي في الحقيقة. ثم إنه بعث الخوف في نفس أمه فوق ذلك بعد.

- وفي ذلك من السوء ما فيه. ومن المأمول أن يتم إدراك تلفيقه في المرة التالية - وفي معظم الأحيان تكون الحال كذلك عند الأطفال، وتُعَاقَب تبعاً لهذا، فألواح الزجاج المهشمة والشال الضائع، والمظلة المنسية في عربة القطار، وشظايا إبريق القهوة المكسور الذي سقط على الأرض، وسيلان الدم من ذراع الأخت المضروبة، هذه الأكاذيب حبلها قصير بالفعل. وفي أمثال هذه الحالات يُدلي الأطفال بأكاذيب فاحشة للغاية، أو يطرحون ادعاءات تنطوي على جنون كامل، بحيث يتم خنق كل مناقشة حول المسألة على الفور، ومنذ البداية.

«لا أعرف، فقد سمعت قرقعة فجأة، ولم أكن في الحجرة أبداً، وإذا الإبريق ساقط من تلقاء نفسه...».

«كان هناك تزاحم وتدافع في عربة المترو، ولم يكن لي بدٌّ من النزول - ولا أعرف أبداً من أخذ الشال...».

والطفل يكذب، وإذا عبّرنا عن ذلك بنية حسنة، قلنا: إنه يلفّق شيئاً ما. وذلك أنه مازال لم يفطن إلى الجسر الدقيق الذي يحوّل الأكذوبة إلى عذر. والجسر الدقيق يعني: بل من الممكن أن يَصُحَّ هذا! والحق إنه لا يصح إلا في أشد الحالات ندرة، ولكن الباب الخلفي الصغير مفتوح.

هل تعرفين هذا: «لا بد لي أن أنهي الحديث الآن، مع الأسف، أيتها العمة ليلو، ولكن كان تلطفاً هائلاً منك أن تدعيني أسمع أخبارك من جديد. ولديّ موعد مضروب ولا بد أن ألحق بالقطار - كلاّ، بالطبع،

فأنت لم تكدّري صفوي، غير أني متأخرة عن هذا». وفي الحقيقة فإن هذا يعني: «إنها تبعث في نفسي الملل بلَغْوِها وهذرها، وما عدت أدري على الإطلاق، كيف أتخلص من العجوز المهذارة التي أدركها الخَرَف. عشرون دقيقة!». وهذه أفضل المعاذير وأحبها إلى الناس، وأكثرها شيوعاً: لا بدّ لي من الذهاب إلى الطبيب، أو الحلاق، أو إدراك القطار. لا بدّ لي أن آتي بالسيارة - أنا أتوقع زيارة - والطعام مصفوف على المائدة - هذه ليست أكاذيب! كلا، بل هي معاذير. وإذا صدقت العمة ليلو هذا حقاً فسوف تغدو خرفانةً شيئاً فشيئاً، غير أنها تعرف على الأغلب: أجل، أجل، ابنة أختي تريد أن تختتم الحديث، لأن وقتها ضيق، أو ليس لديها رغبة.

وكلما ازدادت تفاهة الحديث زادت سهولة استخدام المعاذير وقلة الجهد المبذول فيها، وسوف تُقْبَل أيضاً بلا مبالاة، ومن دون هواجس، ويُرَدّ عليها بناءً على ذلك.

على أننا نعرف الآن مجالات شتى نستخدم فيها المعاذير على الدوام تقريباً من دون أن نلاحظ.

فَلْتَدَعينا نضع بعضاً منها تحت العدسة المكبّرة.